مسؤلية الحرب الكبرى

للدكتور روزن وزير خارجية المانيا سابقاً (١)

في اواسط مايو سنة ١٩١٤ اي ستة اسابيع قبلما قتل الارشيدوق فرنز فرديننند طلب اليّ البارون ادمند هايكنغ على التلفون ان يقضي السهرة في داري ببرلين . كنت حينئذٍ وزيراً لالمانيا في البرتغال وكنت اقضي جانباً من اجازة الصيف في عاصمة بلادي. اما البارون هايكنغ فاصلهُ رومي من الولايات البلطيقية دخل سلك السياسة الالمانية في عهد بسمارك وشغل مراكز سياسية كبيرة في الصين والمكسيك والسرب وغيرها . لكن داءه عضالاً اصابهُ قضى عليهِ باعتزال الخدمة فانزوى في قصرهِ الفخم في كروسن بولاية ثورنجيا . وكانت زوجتهُ البارونة هايكنغ من السيدات الممتازات في السلك السياسي ومشهورة بانها كاتبة بليغة وضعت رواية عنوانها « الرسائل التي لم تصلهُ » حازت رواجاً عظيماً فبيع منها ٦٠ الف نسخة في السنة الاولى بعد ظهورها . فلما مرض زوجها قطعت كل علاقة لها بالحياة الاجتماعية في البلاط الملكي والطبقات العالية ووقفت وقتها على العناية بزوجها . لذلك دهشتُ حينما خاطبني البارون هايكنغ واخبرني انهُ في برلين وبتُّ مشوقاً لاعرف ما حملهُ على المجيء اليها

فلما قابلتهُ في المساء بادرني بقولهِ « لا ريب في ان امراً ذا بال حملني على مغادرة كروسن . انت تعلم ان لي اصدقاء كثيرين في بلاط القيصر بيطرسبرج واكثرهم من مواطنيّ ابناء الولايات البلطيقية . و بعض هؤلاء الاصدقاء كتبوا اليّ من بانا حيث ذهبوا للاستشفاء وفي رسائلهم عثرت على عبارة اثارت دهشتي فاسمعها : —

« قبلما غادرنا بطرسبرج قابل القيصر بعضاً من رجال حاشيتهِ فدار البحث على الحالة السياسية العامة فسأل البارون فردركس وزير البلاط الملكي القيصر « هل تقرر نشوب حرب مع المانيا في الصيف؟ » فاجابهُ القيصر لا استطيع ان اطلعك على تاريخ نشوب هذه الحرب على وجه من التدقيق ولكن يجب ان تعدّ نفسك والمصالح التي في ادارتك للحرب لانهُ لا بدّ لي من الذهاب مع الجيش الى ساحات القتال »

فقلت « حقاً هذه انباء مدهشة ولعلك قدمت برلين لتحذر وزارة الخارجية »

(١) عن جزء يوليو من مجلة « التاريخ الجاري » الاميركية

فقال . «ظننت ان الامر ذو بال ويجب ان احذر اولي الامر. فكتبت الى «فلان» ولكنهُ لم يصدق ما قلت لهُ فردَّ عليَّ برسالة ملخصها انهُ لا يعلق شأناً كبيراً على هذه الانباء بل يجد فيها دليلاً على اتجاه افكار القيصر الحب للسلام لاغير !»

ثم قال « وقد جئت برلين لاحاول اقناع « فلان » بوجوب الاهتمام بالامر اهتماماً جدياً »

فقلت « وهل وُفقت في عملك ؟ »

فقال « كلاَّ . انهم لا يصدقون ما اقول ولكنهم سيعلمون قريباً ان اخباري صحيحة. لقد قمت بما عليَّ ولكن ذلك لا ينجينا من حرب طاحنة يجب ان نجتنبها اذا كان اجتنابها لا يزال مستطاعاً والاَّ فيجب ان نخوض غمارها ونحن كاملي العدة »

الخطر المحدق

قضينا جانباً من مايو و يونيو تلك السنة في قصر هايكنغ بكروسن حيث لقينا وزير المستعمرات وتكلمنا كثيراً عن هذا الخطر المحدق . نظرنا في الحالة السياسية كما رأيناها حينئذٍ فعرفنا ان كل احد في المانيا يعرف ان فرنسا تتهيأ للهجوم على المانيا ولكن ذلك وحدهُ لا يحمل فرنسا على مبادءة المانيا العداء اذا لم تؤيدها دول اخرى. واما اذا كانت روسيا تريد نشوب الحرب فتي ذلك الخطر الداهم لان جيشها مضاعف جيش المانيا والنمسا معاً . وكنت مطلعاً على اساليب السياسة الروسية في البلقان وكيف كانت تبث الدعوة بين صقالبة الجنوب تحثهم على انشاء « دولة السرب الكبرى» وكيف حاولت الضغط على رومانيا لتنسحب من المحالفة الثلاثية وتنضم الى اعداء سريا. وكنا لا نعبأ كثيراً بمساعدة ايطاليا لاننا كنا نعرف كل شيء عن اتفاقها السري مع فرنسا . وكنا نجهل ما يكون موقف انكلترا في حرب اوربية عامة على اننا لم نجد سبباً يحمل انكلترا على سلوك سبيل اخرى غير سبيل الحياد في حرب عامة ما زالت مصالحها غير مهددة بخطر ما . ولم يخطر لاحد منا ان حكومة انكلترا تتخذ خطة تعمل تزيد التوتر بين دول اوربا اذ كنا نعتقد ان الامة الانكليزية تريد الاحتفاظ بالسلم لان تجارتها المنتشرة في كل اقطار المعمور تقتضي ذلك ولان المشكلة الارلندية كانت عقدة من عقد سياستها الداخلية

ولم نُعلم حقيقة الحالة السائدة حينئذٍ الاَّ الآن بعدما ازيح الستار عن كثير من تقلبات السياسة السرية قبيل الحرب فعلمنا الغرض الذي كانت ترمي اليهِ روسيا تؤيدها فرنسا . فانهما بعد ما فصلتا ايطاليا عن المحالفة الثلاثية واضعفتا تركيا بسلخ كثير من

اراضيها بواسطة حلف بلقاني مؤلف من بلغاريا والجبل الاسود واليونان والصرب حولت روسيا مساعيها ضد النمسا مستخدمة في ذلك حلفاً بلقانياً جديداً احد اعضائه رومانيا حليفة النمسا والمانيا قبلاً

انقلاب رومانيا

في اوائل الصيف سنة ١٩١٢ كنت وزيراً مفوضاً لالمانيا في بخارست عاصمة رومانيا فاخبرني الملك كارول انهُ لحظ في بلاده بدء دعوة شديدة الى تأييد روسيا

خرجت روسيا من مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وقد ضمت لاراضيها مقاطعة بسارابيا الرومانية ولكنها فقدت عطف الامة الرومانية من جراء ذلك. على ان فرنسا كانت محبوبة في رومانيا وخصوصاً في عاصمتها حيث كانت اللغة الفرنسوية لغة الاجتماع في الاندية والمجتمعات واكثر الشبان والشابات من الاسر الكبيرة كانوا قد تلقوا علومهم في فرنسا او في مدارس فرنسوية ببلادهم . وكان ابناء فرنسا من رجال السياسة والعلم والفن والتمثيل يزورون رومانيا ويظهرون في عاصمتها ظهوراً خاصاً . فاشار علي الملك كارول حينئذٍ انهُ يجب على المانيا ابطال فعل هذه البروبغاندة ببرو باغندة من نوعها فيزور رومانيا المان ممتازون يبينون لشعب رومانيا ما آتي الالمان في العلم والفن والفلسفة

تركت رومانيا في تلك السنة فلم اتمكن من تحقيق رغائب الملك كارول . وعلمت بعدئذٍ عن اتساع البروبغاندة الروسية الفرنسوية حتى بلغت في مايو سنة ١٩١٤ مبلغاً مكّن قيصر روسيا من زيارة ملك رومانيا في كونستنزا فقوبل بالحفاوة والاكرام من كبار الامة والحكومة فنازت فرنسا وروسيا في صرف الرأي العام في رومانيا عن المحالفة الثلاثية . وكانت المحالفة بين رومانيا والمانيا والنمسا محالفة سرية فلم يعرف شعب رومانيا ان الجيازة الى روسيا في حرب بين روسيا والنمسا اخلال بعهود قطعها زعماؤهُ

فلما تمَّ ذلك اعدت حكومة النمسا مذكرة بعثت بها الى حكومة المانيا وابانت فيها نتائج هذا الانقلاب في موقف رومانيا من الوجهة الحربية . ذلك ان النمسا كانت تعتمد على رومانيا في استخدام بضع فرق من الجيش الروسي اذا نشبت الحرب فصار يتعين على النمسا ان تقف جانباً من جيشها لمراقبة رومانيا ومحاربتها اذا اقتضت الحال . وصار في وسع روسيا ان تهاجم النمسا بجيش كبير لان اتفاقها مع رومانيا يخلي جانباً كبيراً من جيشها كان يجب رصدهُ لمراقبة حدود رومانيا

وابانت حكومة النمسا في هذه المذكرة ما يلاقيهِ اركان حرب الجيش النمساوي

من الصعوبة في تغيير كل الخطط الحربية الناشئة عن هذا الانقلاب واقامة الحصون والاستحكامات الكافية على حدود رومانيا سدًّا لاغارة جيوشها على ترانسلفانيا

ورأت ان المخرج الوحيد من هذا المأزق هو عقد محالفة مع بلغاريا ثم مع تركيا الاّ اذا فازتا (اي النمسا والمانيا) باقناع حكومة رومانيا ان تعلن بقاءها على اتفاقها معهما. فاذا وافقت رومانيا على ذلك — وهذا كان غير محتمل — طُلب من الملك كارول ان يكون وسيطاً بين النمسا وسربيا فيسعى لتوطيد العلاقات الودية بين الفريقين وتُظهر النمسا حينئذٍ عطفها على رغائب السرب الاقتصادية والسياسية

ولم تُذكر السرب في هذه المذكرة باكثر مما تقدم لان حكومة النمسا رأت خطر رومانيا اعظم من خطر سربيا ، لان انقلابها اثبت لرجال السياسة في النمسا والمجر ان معظم الخطر آتٍ من ناحية روسيا

وضع هذه المذكرة بعض الموظفين في وزارة خارجية النمسا وصححها وعدّل فيها الكونت برختولد وزير الخارجية حينئذٍ وتمّ وضعها في ٢٤ يونيو سنة ١٩١٤ اي اربعة ايام قبل حادثة سراجيفو . فكان من نتيجة هذه الحادثة انتقال مركز العاصفة من بخارست الى بلغراد ومن الواضح لمتتبعي التاريخ الحديث ان مهبّ العاصفة السياسية كان من رومانيا حتى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ ثم انتقل فجأة الى سربيا ، وانّ روسيا هي التي اثارتها لا سربيا

***

والاسباب التي حملت روسيا على الشروع في اضرام نار الحرب كثيرة اولها انها كانت تخاف كل الخوف من تركيا السائرة على طريق الارتقاء بمساعدة المانيا في بناء سكك الحديد وحفر ترع الري في اسيا الصغرى وغير ذلك من اعمال العمران . ثانياً كان وزير خارجية روسيا اسفلسكي يكره النمسا كرهاً شديداً لانها ضمت البوسنه اليها . واهم من هذين السببين خوف اولي الامر في روسيا من شبوب نار الفتنة والثورة فيها فحاولوا صرف هذه القوى في مجارٍ اخرى — مجاري الحرب . وقد كانت روسيا متأهبة للحرب تأهباً كافياً رغم اخفاقها في حربها مع اليابان لان اصحاب الاموال البريطانيين وبعض ضباط فرنسا ساعدوها على النهوض من كبوتها الحربية في اقل من عشر سنين . واشترك في ذلك اصحاب الاموال من الالمان ايضاً فانهم قدموا اموالاً لبناء بعض السكك الحديدية التي لها مقام حربي كبير . ولكن اكبر العوامل اثراً في حمل روسيا

على طلب حرب معجلة هو تثبتها من تأييد فرنسا وصربيا ورومانيا ومن تأييد انكلترا ايضاً . على ان تأييد انكلترا كان مقيداً ببعض القيود

وكانت الامور في بطرسبرج معلقة لا تحتاج الى كثير من الجهد حتى يفوز الحزب الحربي فيها و يسيّر الامور على هواه . فاذا ثبت ان بريطانيا تؤيد روسيا فقد ذهب كل مانع يمنع اندفاق السيل الروسي على اوربا . ولكن ما كان موقف انكلترا ؟ تلك كانت المسألة الاولى حينئذٍ . فلا شك ان فرنسا كانت قد اخبرت حليفتها روسيا بما دار من المراسلات بين السر ادورد غراي (وزير خارجية بريطانيا حينئذٍ) والمسيو پول كامبون سفير فرنسا في لندن في نوفمبر سنة ١٩١٢ — مراسلات امّت فرنسا بمقتضاها ان تؤيدها بريطانيا تأييداً حربيًّا « اذا اتضح لاحدى الحكومتين انها تخشى هجوماً لا سبب لهُ من فريق ثالث او اذا اتضح ان السلام العام في خطر »

ولا اسهب الكلام في هذا المقام على اثر هذه المراسلات في السياسة الفرنسوية . لان مجرّد الاتفاق بين اركان الحرب في الجيشين الفرنسوي والانكليزي و بين رجال الاسطولين على كيفية العمل حين نشوب حرب مع المانيا كان كافيًا لاحياء « فكرة حرب الثأر » في فرنسا فيحتشد كل الاسطول الفرنسوي في البحر المتوسط و يتعهد الاسطول البريطاني بحماية الشواطئ الفرنسوية على بحر المانش والاوقيانوس الاتلنتيكي وكذلك تُزَجُّ انكلترا في حرب تنشب بين فرنسا والمانيا

ولكن لو فرضنا ان حرباً نشبت في مكان آخر غير غرب اوربا اي بين روسيا والدول المركزية ، فاذا يتم حينئذٍ في اتفاق غراي وكامبون . لا بدَّ ان تكون النتيجة واحدة حينئذٍ لان فرنسا كانت حليفة روسيا ولا بدَّ لها من تأييد حليفتها في حرب كهذه . ثم اسهب الدكتور روزن في الكلام على مساعي فرنسا لكي تحمل انكلترا على عقد اتفاق بحري مع روسيا ارضاءً لها لان الفرنسويين لم يعلقوا شأناً حربيًّا كبيراً على هذا الاتفاق

ثم بيّن ما ساور المانيا من المخاوف ، ورجّح اطلاع عمّال روسيا في صربيا على الدسيسة المدبرة لاغتيال الارشيدوق فرنز فرديناند وقال ان روسيا وحلفاءها كانوا قد صمموا على اضرام نار الحرب قبل مصرع الارشيدوق فليس من العجيب والحالة هذه ان يتمكن القيصر من اصدار تعليماته الى البارون فردركس في مايو سنة ١٩١٤ لكي يتأهب للحرب التي لم يشأ ان يمنعها ولو شاء لما استطاع آه . وقد جرى الدكتور روزن في اكثر كلامهِ المتقدم مجرى رجال السياسة لا مجرى المؤرخين